العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

" قراءة في متشابهات الإطناب "

إعداد : د. محمد مصطفى السماعيل

الهيئة العامّة للشؤون الإسلامية والأوقاف في الإمارات العربية المتحدة – أبو ظبي

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

الملخّص :

تضمنّ هذا البحثُ حصراً للأساليب الإطنابية الخمسة التي تتشابه فتشتبه كثيراً على الدارس أو المطلع ، لا سيما وأنّ مِن علماء البلاغة والبيان مَن فرّق بينها كلّها ، ومنهم مَن أدرج دلائل بعضها ببعضها الآخر ، ومنهم من ذكر شواهد خصصت لأسلوب معين منها على أنه شاهد لأسلوب آخر ، ونحو ذلك من الاختلافات التي نشأت عن تقارب وتشابه دلائلها وصورها ، فجاء البحث ليفصل القول في كلّ منها ، ويبين حدّ كل منها ، ومستوى حاجة الكلام لكل أسلوب منها كونها زيادات بيانية جيدة في الكلام ، توضحه أحياناً ، وأحياناً تجلّي غامضه ، وتدفع ما قد يتوهم منه في بعض الكلام ، ونحو ذلك مما يطلبه الكلام ليصل إلى حدّ الجودة والتميّز .

كلمات البحث : متشابهات الإطناب ، الاحتراس ، التتميم ، التكميل ، المغالاة ، الاستقصاء .

المقدّمة :

الحمدُ لله ربّ العالمين ، بديعِ الوجود في ابتدائه ، بعيدِ تصوّر الخلق عن مثيله ، المتمّمِ نواقصَ إدراك أذهاننا ، المكمّلِ حِكَمَه مع قصور أفهامنا ، لا إيغالَ إلى كُنه ذاته ، ولا استقصاءَ أعمَّ وأشملَ مِن عيّنات آياته ، حُقَّ لنا رجاءُ رحمته والسعيُ إلى رضوانه ، والبعدُ عن أسباب سخطه احتراساً مِن عذابه ، وصلاةً وسلاماً تامّين كاملين على خير مَن تدبّجت ببيانه ديباجةُ الأرقام والطروس ، وتعثّرت عن مجاراة بيانه الأقلام ، فعفَت بلاغتها أمام بيان حضرته النبوية فأصبحت كالدروس ، وعلى آل بيته خيار الأمّة ، وأصحابِه نجوم الهدى وأعلام التقى ، وبعد :

إنّ الغائص في لـُجّيّ بحور العربية لَيدركُ أنّ الإحاطة بخصائصها ومزاياها وأساليبها وأفانينها في متناولٍ صعبٍ مِن الفهم والإدراك ، غير أنّ مَهَرة الدارسين والمهتمين قد يتدلّى لهم ـ دون غيرهم ـ الكثيرُ مِن ثمار هذه الأساليب والخصائص فيسهل عليهم بلوغُها وقطافها ، وقد اقتضت حكمة الله ﷻ في إظهاره بعضاً مِن سنا برق هذه الأساليب لبعض عباده الذين اصطفاهم لمهمّة التبحّر والبحث في لغويّات

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

وبلاغيّات ودلالات اللغة العربية ، ثم استخراجِ لآلئِها البرّاقة ويواقيتها الثمينة ، أنْ يصِلوا إلى حقيقةٍ هي: أنّ البريق اللامع الذي يشعّ للدارس المتأمّل في جمالها إنما هو أسلوب الإيجاز الذي أظهر مزيّة اللغة العربية ، وميّز ـ في أكثر الأحيان ـ صَنعة الكلام العربي وخصوصيـّتَه ، فبعد أنْ يُحكَم على الكلام بالإتقان في إيجازه يُنتقل إلى الخصائص والأساليب الأخرى التي تُفاضل بين الكلام ، وما جاء تشبيهُ شيخ البلاغة الإيجازَ بالسحر إلا لما ذُكر آنفاً ، حيث يقول رحمه الله تعالى : (هو بابٌ دقيقُ المسلك ، لطيفُ المأخذ ، عجيبُ الأمر ، شبيهٌ بالسحر ، فإنك ترى به تركَ الذكر أفصحَ مِن الذكر ، والصمتَ عن الإفادة أزيدَ للإفادة ، وتجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق ، وأتمّ ما تكون بياناً إذا لم تبِن[1]) ، غير أنّ كلّ ما ذكر الشيخ عبد القاهر ينعكس إذا لم يكن للإيجاز في العبارة مكانٌ ، ولم يتسع له في النص ميدانٌ ، أو اقتضى المقصودُ عدمَه ، فعندئذٍ لن يكون تركُ الذكر أفصحَ مِن الذكر ، ولن يكون الصمتُ عن الإفادة أزيدَ لها ، فوجبَ حينئذٍ تركُه والزهدُ فيه ، إما بأن تُصنَع الألفاظ على قدر المعاني إنْ كان بذلك كفاية أعني : أسلوبَ المساواة ، وإما بإعمال فنّ الإطناب ليصل الكلام إلى درجة الكمال في الإفهام، وهذا ما قصده السوادُ الأعظمُ مِن أربابِ المعاني الذين لم يقبلوا أنْ يكون مَردُّ المفاضلة بين الكلام راجعاً إلى إطنابٍ بعينه ، أو مجازٍ فحسب، أو مساواةٍ ، وإنما فصَلوا بالحكم على البليغ مِن الكلام

وفقاً لما يقتضيه ويطلبه مِن إحدى هذه الثلاثة .

وإنّ أسلوب المساواة بين الألفاظ ومعانيها لا يتطلب تلك الدراسة المستفيضة التي توضّحه ، إذ إنها أصلُ الكلام ، وإنّ الجدير بالدراسة والبحث جناحاها اللذان يطير طائر الكلام بهما ، أعني : الإيجاز والإطناب ، إذ يمثّل الإيجازُ حركة الخفض التي لا بُدّ منها ليرتفع الآخر، كما يمثل الإطنابُ حركة الرفع التي لا غنى عنها لتجنّب السقوط .

وحيث إنّ الإيجاز له أقسامه وأنواعه التي تُشبع الكلامَ بياناً ، فكذلك لم يكن للإطناب صورة واحدة ، ولو كان ذلك كذلك لخفِيَ علينا معرفةُ الكثير مِن أساليب الزيادة والتوسّع في الكلام ، ولأنّ منظومة الإطناب واحدةٌ ، وخيوطَه متشابكةٌ و متماسكةٌ ، كان لا بُدّ مِن تشابه الأجزاء كما تتشابه أجزاءُ وأرياشُ

[1] – عبد القاهر الجرجاني ت417هـ (1992) دلائل الإعجاز في علم المعاني ، القاهرة ، مطبعة مدني ، ص100 .

الجناح الواحد ، غير أنها لا تتماثل ، فلكلّ ريشة عملٌ ومهمّةُ توازنٍ لا تؤدّيها أختها ، وإنّ هذه الورقات تُعنى بأكثر أساليب الإطناب شبهاً فيما بينها ، وبيانِ الفروق بينها ليسهل التمييز والفصل بينها ، وهذه الأساليب متفاوتة المستوى مِن حيث أهمية احتياج الكلام لها ، وإمكانية استغنائه عنها ، وهي: (الاحتراس . التتميم . التكميل . الإيغال . الاستقصاء) ، ولكلّ فنٍّ مِن هذه الفنون خصائصُ وعلاماتٌ يُعرَف ويُعرَّف بها ، ولن يكونَ هذا البحثُ إلا توضيحاً لها ، وتفريقاً بينها ، وإزالةً لما يكون مِن لَبسٍ مُحتمَل قد يقع فيه الدارس .

مشكلة الدراسة :

قد تتّضح وتُقرَأ مِن عنوان هذا البحث ، إذ إنّ التقاربَ الشديدَ والتشابهَ الأسلوبيَّ الذي يصل إلى حدّ الالتصاق في فنون الإطنابِ السالفِ ذكرُها ، والذي قد يخفى أحياناً على المختصّين في علم البلاغة ، هو الذي يثير الدراسةَ ومحاولةَ التفريقِ وإزالة التشابهِ بل والتشابكِ بين الخيوط الأدبية لفنون الإطناب هذه ، وذلك لأنّ بعضَ الأفذاذِ مِن مؤسّسي هذا العلم الأوائلِ أنفسِهم قد تشابه الأمرُ عليهم ، ولم تجتمع كلمتهم في هذا الشأن ، فإذا كان الأمر قد اشتبه وتشابه على بعض روّاد البلاغة وينابيعِها فكيف لا يتشابه على دارسي علم البلاغة في هذا العصر الذي يعاني من شحٍّ وقلّةٍ ظاهرةٍ في الدراساتِ البلاغية والرغبةِ في تعلّم أصولها ؟ .

أهداف الدراسة :

1. حلّ الخيوط المتشابكة بين المتشابهات مِن أساليب الإطناب ، لتبدوَ بنسق علميٍّ واضحٍ بعيدٍ عن الالتباسات التي تعرض لكلّ ناظرٍ لها في المؤلفات البلاغية ، القديمةِ منها والحديثة .

2. تقديم هذه المادة بشكلٍ منضبط يُسهّل على المُطالع المهتمّ التفريقَ بين كلّ فنٍّ وآخر ، كما يهدف البحث إلى التسهيل على معلّم هذه المادة تقديمَها بشكل أظهرَ وأوضحَ للمتعلم .

3. التعريف بدرجات ضرورة هذه الزيادات الكلامية للكلام العربيّ .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

أهميّة الدراسة :

تتخلص أهميّة هذه الدراسة في رجاءِ الباحث أنْ تكون مشكاةً تضيء عتمةً لم يُكتب لها الجلاءُ منذ أنْ دُوّنت هذه الأساليب الإطنابية في كتب البلاغة إلى عصرنا هذا ، وإنما تُذكـَر وتـُذكر شواهدها بكثيرٍ مِن التشابه وعدمِ الفصل في هذه الفنون ، مع اختلافٍ في تسمياتها .

الدراسات السابقة :

بعد البحث والتتبّع الدقيق في المكتبات التي تقدّم الخدمات المكتبية لم يثبت أنّ أحداً مِن الباحثين قد كتب في التفريق بين المتشابهات مِن أساليب الإطناب ، وإنما تُذكر هذه الأساليب وتُدرَس في إطار استنباطها مِن النصوص القرآنية أو الأحاديث الشريفة أو الأشعار العربية مثلاً ، أو التحليل البلاغي للوارد منها في تلك النصوص ، أو ذكرِها كأساليبَ خلّابةٍ مليحةٍ في فنّ الإطناب الذي تندرج تحته ، أو نحو ذلك مِن الدراسات التي ابتعدت عن جمعِها ببحثٍ واحدٍ ليتمَّ تمييزُها عن بعض وذكرُ درجات الضرورة فيها لذكرِها في الكلام العربي .

الدراسة التطبيقيّة :

ـ الاحتراس :

وأصلُه زيادة في الكلام ، غير أنّ وجوده في الكلام إنما جاء لشبه ضرورة ، وهو دفع توهّمٍ أو احتمالٍ يظهر في المعنى ، فهو غير فضلةٍ بالمطلَق في الكلام ، لأنّ عدمَه في بعض الكلام قد يوجّه الفهمَ إلى ما ليس مقصوداً ، وليس هذا هو سبب تصنيفه ـ عندي ـ الأولَ في هذه الورقات ، لأنّ يقيني بأنّ الزيادة لدفع التوهّم أقلُّ حاجة في الكلام مِن الزيادة لإتمام المعنى أو إقامةِ الوزن ، وهي الزيادة التي يُعنى بها " التتميم " وسيأتي ذكره ، فالتتميم أولى بتقديمه في الذِّكر هنا ، حيث جعلتُ التسلسلَ حسب مستويات الضرورة ، فإنْ كان الاحتراسُ شبهَ ضرورة فتتميمُ المعنى وضبطُ وزن البيت الشعريّ أكثرُ ضرورة ، إذن : فحقّ التتميم أنْ يُذكر قبل الاحتراس إذ كان الترتيب في هذه الدراسة وفقاً لدرجة حاجةِ

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

النصّ للزيادة ، وهذا[2] ما كنتُ أصبو إليه ، وأتطلّع إلى تطبيقه هنا ، وأبتغيه ، وإنما يرجع سببُ تقديم الاحتراس على غيره هنا ، واستهلالِ أنواع الإطناب الخمسةِ به ـ مع قناعتي بلزوم تأخيره عن التتميم ـ لما يترتب على ذكر التتميم مِن ذكرٍ للإيغال ، حيث يتعاقبان ـ عادةً ـ في بعض كتب البلاغة ، ويجعل الإيغال موازياً للتتميم ويُفرَّق ـ عادةً ـ بينهما بأنّ الإيغال يأتي في أواخر الكلام بخلاف التتميم الذي يأتي في حشوه ، ولا أرى الصواب في هذا الفارق ، إذ لا يمكن أن يُجعَلَ إتمامُ المعنى الذي لا بدّ منه أو إقامةُ الوزن الذي يُتلف عدمُه بيتَ الشعر ، أعني : قِسْمَي التتميم ، كالإيغالِ الذي يقتصر معناه ويدور حول معنى الزيادة في الإيضاح والإفهام ، فلا يُعقَل أنْ تكونَ حاجة الزيادة في قول زهير :

كأنّ فتاتَ العِهن في كلّ منزلٍ نزلنَ به حبّ الفنا لم يحطّم

كحاجة الوزن للزيادة في قول المتنبي :

وخفوق قلـبٍ لو رأيتِ لهيبــَه ـ يا جنّتي ـ لرأيتِ فيه جهنّما

أو يُجعلَ[3] مِن حيث الزيادة الحاصلة فيه كحاجةِ المعنى للزيــادة في قولـه ﷻ" وَيُطْعِمُونَ الطعَامَ على حُبِّهِ مِسْكِيناً ويتيماً وَأَسِيراً "[الإنسان ، ٨] في حال عاد ضمير " حبه " على الطعام !.

ففي قول زهير إيغالٌ لا ضرورة ملحّة فيه لفهم المعنى ، لولا أنه زاد عليه حسناً وشرحاً لِمن قصُر ذهنه عن معرفة حبّ الفنا ، فحبّ الفنا إذا كسر ابيضّ ، وإذا لم يكسر يبقى بصبغته ولونه الأحمر ، وهو يصف لون فتات الصوف المصبوغ بالأحمر الذي تزيّنت به الهوادج التي نزلتْ بها تلك النسوة بلون حبّ الفنا ، ومعروفٌ أنّ لونه أحمر ، فأوغل في تحديد كونه لم يكسر فلم يبيضّ ، وهذا مِن الترف البيانيّ الذي استخدمه الشاعر ، وأما في قول المتنبي ـ يا جنتي ـ تقويمٌ لوزن البيت لا بدّ منه وإلا تكسّر الشطر ، وكذلك في قوله تعالى : "على حبّه" ، ضرورة لبيان ما وصلوا إليه مِن شرف الإنفاق والإيثار ، حيث كانوا مِن أهل البرّ الذين ينفقون ما يحبون ، فهو إطنابٌ متمّمٌ للكلام لا يُستملَح الكلامُ بدونه .

[2] – تقديم التتميم على الاحتراس في الدراسة .

[3] – أعني : قول زهير المتقدم .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

فليس مِن الإنصاف مشاكلة التتميم بالإيغال والتفريق بينهما بكون الأول في حشو الكلام والآخر في نهايته فحسْب ، ومهما يكن مِن أمرٍ فإنّ تأخير ذكر التتميم عن الاحتراس في هذا البحث إنما كان مراعاة لما درج عليه البيانيون مما ذكر آنفاً لا غير .

وبالرجوع للاحتراس أقول : لقد تفاوتت مهاراتُ أرباب المعاني في الحديث عن الاحتراس ، فمِن جهة التعريف لم يكنْ لابن أبي الأصبع حظٌّ وافرٌ مِن الدّقة ، وذلك مِن جهةٍ واحدةٍ هي : كون تعريفه ينطبق على كلّ كلامٍ سوى كلام الله ﷻ ، إذ يعوّل في تعريفه الوارد في أكثر مِن موضع في كتابه (تحرير التحبير) على معنى تداركِ الوهم في المعنى والفطنةِ له مِن قِبَل المتكلم ، يقول في حدّه : " أنْ يأتي المتكلم بمعنى يتوجّه عليه دخل ، فيفطن له ، فيأتي بما يخلصه مِن ذلك[4] " ، ثم يذكر الاحتراس في موضع آخر فيقول عنه : " ما فطن له الشاعر أو الناثر وقت العمل فاحترس منه [5] " ، ففطنة المتكلم لدفع احتمالٍ دخل على المعنى لا يتناسب وكلامَ الله ﷻ ، علماً بوجوده في القرآن الكريم على ما سيأتي ، كما لا يناسب ذكرَه رحمه الله عدداً مِن الآيات الكريمة شواهدَ على الاحتراس بعد ذلك ، فقد بَعُد البَون بين تعريفه بالاحتراس والاستشهادِ بكلام الله ﷻ ، وأما مِن حيث النقدُ الإيجابيّ لتعريف ابن أبي الأصبع فيمكن القول : أنّ تعريفه للاحتراس يفيد تفصيلاً لا يفيده غيرُه كالخطيب القزويني مثلاً في تعريفه ، غير أنّ تعريف الأخير لهذا الفنّ أدقّ عبارة وأعمّ معنى ، فضلاً عن مناسبته لكلّ كلام ، بما في ذلك كلام الله ﷻ ، فيقول فيه : " وهو أنْ يُؤتى به في كلامٍ يوهم خلافَ المقصود بما يدفعه[6] " ، ودفع المتوهَم مِن الكلام الذي لا يُقصَد فيه لا يتنافى والتنزيلَ الحكيم ، بخلاف فطنة المتكلم لما يُخشى توهّمه ، ثم الإتيان بما يدفع هذا التوهم ويخلّصه مِن ذلك ، كما ذُكر في تعريفِ ابن أبي الأصبع ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

وفي تعريف ابن المنقذ للاحتراس إخفاقٌ عجيبٌ ، واختصارٌ مدهش ، لا يؤدّي القصدَ ولا يشرح

[4] – ابن أبي الأصبع العدواني البغدادي ثم المصري ت654هـ ، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، الجمهورية العربية المتحدة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ص245 .

[5] – المرجع نفسه ص246 .

[6] – جلال الدين القزويني الشافعي ت739هـ ، ط3 ، الإيضاح في علوم البلاغة ، بيروت ، دار الجيل 310/1 .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

المراد الصحيح ، يقول : " هو أنْ يكون على الشاعر طعنٌ[7] " فأنْ يلخـّص حدَّ الاحتراس بطعنٍ وقع في شعر الشاعر أمرٌ مردودٌ ، إذ إنّ الطعن يكون موجَّه مِن ناقد ، ولا يشترط هذا في الاحتراس ، فقد يكون وقد لا يكون ، فيأتي الاحتراس دفعاً لشكٍّ أو توهمٍ ، أو يكون دفعاً لافتراضِ طعنٍ انتبه له الشاعر دون أنْ يُوجَّه له مِن أحدٍ ، وأيضاً تخصيصه بالشاعر مأخذٌ لا يمكن تجاوزه، كما لم يُتجاوز في تعريف ابن أبي الأصبع السابق ، والعجب كلّ العجب مِن إتْباع تعريفِه هذا بقوله : " كما قال الله تعالى : ﴿أَلَنْ يَنْفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذْ ظلمتُمْ أنكُمْ في العَذابِ مُشْتَرِكُوْنَ﴾ [الزخرف ، ٣٩] فيفنّد القول بالاحتراس في الآية ثم يستشهد بقول الله سبحانه وتعالى :﴿نِسَاؤُكُمْ حَرثٌ لَكُم فأتوا حَرثكمْ أنّى شِئتم وَقدِّمُوا لأنفُسِكم واتّقُواْ اللهَ واعْلَموا أنّكُمْ مُلاقوهُ وبَشّرِ المُؤمِنينَ﴾[البقرة ، ٢٢٣] فكيف يقيّد الاحتراس بكلام الشاعر ثم يذكر قول اللهﷻ ؟! فاستشهاده بالآيات صحيح ، وتعريفه للاحتراس ضعيف يتعارض مع الشواهد التي ذكرها ، كما أنه لا يُقَرُّ لابن المنقذ إسقاطُ وجود الطعن في الكلام على كلام الله ﷻ ، وفي كلامه عن الاحتراس أيضاً قيَّد المعنى بكونه صادراً عن شاعر ـ مع إتقانه لتعريفه ـ ثم استشهد بآياتٍ مِن الذكر الحكيم ، وفي هذا مفارقة بين التعريف والاستشهاد كما الحال عند ابن أبي الأصبع ! وهو في هذا يسير على سنن ابن رشيق القيرواني ، الذي خصّص تعريف التتميم الذي يرادف الاحتراس أيضاً ـ حسب رأيه ـ بكلام الشاعر ثم ذكر قوله تعالى " ويطعمون الطعام ... الآية" شاهداً عليه في حال عودة الضمير إلى الطعام .

وأما مِن حيث التفريق بين الزيادات الإطنابية في الكلام ، فلعلّ الريادة في هذا لابن أبي الأصبع الذي أحسن التفريق بينها ، خلافاً لأكثرية أرباب البلاغة ، فحيثُ أنكر ابنُ أبي الأصبع على ابن رشيقٍ اعتبارَ الأخير الاحتراسَ والتتميم شيئاً واحداً[8] ، وحيثُ جعل الخطيبُ القزويني الاحتراسَ والتكميل كذلك[9]، كان لابن أبي الأصبع رأيٌ في التفريق ، وهو أنّ الكلام قبل التكميل صحيحٌ تامٌّ ، ثم يأتي التكميل بزيادةٍ يكمّل بها حسنَه ، إما بفنّ زائد أو معنى ، والتتميم يأتي ليتمّم نقص المعنى والوزن معاً ، أما الاحتراس ـ حسب رأي ابن أبي الأصبع ـ فيأتي لدفع احتمالٍ دخل على المعنى ، حتى وإنْ كان الكلام تاماً كاملاً و وزنه صحيحاً [10] ، كما بيّن الفرق بينه وبين الإيغال مع تنبيهه على توهّم الإيغال في حال وقوع الاحتراس

[7] – ابن منقذ الكناني الكلبي الشيزري ت 584هـ ، البديع في نقد الشعر ، الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ص55 .
[8] – ابن منقذ ، البديع في نقد الشعر ، ص 245 .
[9] – القزويني ، الإيضاح ، 310/1 .
[10] – ابن أبي الأصبع ، تحرير التحبير ، ص245 .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

والتتميم في موضع الإيغال ، فذكر أنّ الإيغال كونُ القافية تفيد الكلام معنى زائداً بعد تمام معناه وصحّته[11] ، فالإيغال برأيه أشبهُ بالاحتراس مِن حيث الزيادة بعد معنى تامٍ وكاملٍ ، وبالتكميل مِن حيث الزيادةُ نفسها ، لا لنقصٍ في الكلام ، وإنما لزيادة في إيضاحه .

ثم يذكر مفارقة الإيغال للتكميل وتميّزه عنه بأمرين : 1. مجيئه في القافية فقط 2. واختصاصه بالمعاني دون الفنون[12] ، خلافاً للتكميل الذي لا يختص بالقافية ، ولا بالمعاني فحسب ، بل يكون في الألفاظ .

وإنْ كان مِن مأخذ قد يؤخذ عليه في هذا ، فإنما هو عدم الرؤية الواضحة في التمييز بين الاحتراس والتكميل ، على الرغم مِن إفراده باباً لكلٍّ ، وظهر هذا في حديثه عن التكميل ، فقد ذكر شواهد هي إلى الاحتراس أقرب منها إلى التكميل وفق التعريفات المحدّدة لكلٍّ منهما ، كما أنه لم يتجنب إطلاق مصطلح الاحتراس مريداً به التكميل ، وهذا موافقٌ لرأي ابن حجّة الحموي كما سيتضح لاحقاً في الحديث عن التكميل .

ويجدر الذكر هنا : أن قدامة بن جعفر أطلق على معنى الاحتراس هذا اسمَ الالتفات ، وذلك في حديثه عن نعوت المعاني التي يستخدمه الشاعر في شعره[13] ، ولذلك لا يعاب عليه تخصيصه بالشعر لأنّ سياق تعريفه جاء في كلامه عن نعوت المعاني التي يستخدمها الشاعر في شعره ، فقد كان حديثه مخصوصاً بالشعر دون غيره .

ومِن أمثلة الاحتراس قول الله ﷻ : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُم أَنْ تَفْشَلا والله وليُّهُمَا وَعلى اللهِ فَليتوكَّلِ المُؤْمِنُوْنَ ﴾ [آل عمران ، ١٢٢] ، فالاحتراس في قوله " والله وليهما " ، إذ أزيل بهذا الاحتراس توهّم نقصٍ قد يُفهم في هاتين الطائفتين وهما بنو حارثة وبنو سلمة بعد همّهما بالانخزال عن جيش المسلمين يوم أحُدٍ

[11] – المرجع السابق ، ص248 .
[12] – ابن ابي الأصبع ، تحرير التحبير ، ص248 .
[13] – قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي ت337هـ ، (1884) نقد الشعر ، القسطنطينية ، مطبعة الجوائب ، ص53 .

والفشل ، فقد نصرهما الله ﷻ على ذلك الفعل الذي زيّن لهما الشيطان الهمَّ به ، وعصمهما مِن ذلك ، فقبل أنْ يرسُخ التوهّمُ تُتدارك العبارة بزيادة ما تدفع ذلك التوهم .

ودفع التوهم قد يكون آخر الكلام ، كما تقدّم في الآية ، وليس يراد مِن آخر الكلام هنا رأسُ الآية ، أو عجز البيت ، وإنما تمامُ المعنى المساق ، ولو توسّط هنا لقيل : " إذ همّت طائفتان منكم ـ والله وليهما ـ أنْ تفشلا " ، وقد يكون في أثنائه ، كقول طرفة بن العبد :

فسقى ديارَك ـ غير مفسدها ـ صوبُ الربيع ، و ديمةٌ تهمي

فاحترس بـ " غير مفسدها " الواقعة في وسط الكلام عن إغراق الديار ومحو معالمها .

ولقد ذكر هذا البيت أكثرُ مِن واحد شاهداً على التتميم الذي يكمل المعنى ويفيد في بعض أغراضه الاحتراسَ مِن التقصير الواقع في الكلام ، كابن رشيق الذي يجعل الاحتراس غرضاً مِن أغراض التتميم فيقول :" أن يحاول الشاعر معنى، فلا يدع شيئاً يتم به حسنه إلا أورده وأتى به ، إما مبالغة ، وإما احتياطاً واحتراساً مِن التقصير" ، ثم يجعل البيت السابق شاهداً على ما قال ، مبيّناً ذلك بقوله : " لأنّ قوله غير مفسدها تتميم للمعنى ، واحتراس للديار مِن الفساد بكثرة المطر" ، كما يذكر الكثير مِن شواهد الشعر التي ذكرها غيرُه شواهدَ للاحتراس في باب التتميم [14] ، وتخصيصه هذا بالشعر أصلٌ لتخصيص خَلَفِه ابنِ المنقذ الاحتراسَ والتتميمَ بالشعر ولا يُقرّ لهما ، كما سبقه في ذلك ـ أعني : إيراد هذا البيت شاهداً على التتميم ـ قدامة بن جعفر [15] .

ومِن بديع الاحتراس قولـــه ﷻ : ﴿ أَلَآ ... فَسَوْفَ يَأْتِ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾[المائدة ، ٥٤] ، ففي " أعزة على الكافرين " احتراسٌ عن ضعفٍ مطلق ، وحاجةٌ لدفع سوء الفهم ، إذ لو اقتصر على قوله : " أذلة على المؤمنين " لتسلّل الوهم بأنّ ذلتهم بسبب ضعفهم، فجيء بوصفهم بالعزة على الكافرين ليُعلم أنّ ذلتهم لإخوانهم المؤمنين إنما دافعها التواضع لا الضعف ، بدليل أنهم أعزة وأشداء على الكافرين .

[14] – ابن رشيق القيرواني الأزدي ت463هـ ، (1981) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، بيروت ، دار الجيل، 5/2 .
[15] – قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ص 49.

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

وحيث صُدّر هذا البحث بالاحتراس لزيادةٍ في أهمية ذكره في الكلام ، فلا بدّ أنْ يليه في الذكر فنُّ التتميم الذي كان تقديمُه أولى ـ كما ذكرتُ في غُرّة الاحتراس ـ وإنّ أسلوب التتميم الذي يُعنى بإتمام وإقامة الوزن أو المعنى لهو الجدير بتعقيبه فنّ الاحتراس هنا ، وسأذكر معه الإيغالَ مراعاةً لتقريب بعض البلاغيين بينهما والتفريقِ بينهما بفارق واحدٍ فقط ، هو جعل التتميم في حشو الكلام وأثنائه ، والإيغالِ في آخره ، لا إقراراً لهم بصحّة هذا التفريق .

ـ التتميم والإيغال :

لعلّ أتمّ وأجمع ما قيل في التتميم ، هو ما قاله أبو هلال العسكري في حدّه : (أنْ توفي المعنى حظّه مِن الجودة ، وتعطيه نصيبه مِن الصحة ، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده ، أو لفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره[16]) فلم يخصصه بالشعر ، وقد أوضح العسكريُّ في تعريفه معنى الحاجة التي يطلبها الكلام لتتميمه ، فتوفية المعنى حظَّه مِن الجودة ، هو حقٌّ للمعنى وليس فضلةً أو ترفاً في الكلام، وكذلك إعطاؤه نصيبه مِن الصحة ، بمثابة دَيْنٍ مستحَقٍّ مُناطٍ بذمّة المتكلّم أو الكاتب للنصّ ، إذ لا يمكن أنْ يُطلَب كاملُ الوضوح في الكلام دون أنْ يوهَبَ نصيبَه مِن التتميم الذي يشكل جزءاً مِن صحة معناه .

أما مِن حيث إيضاح معنى التتميم فالسبق لابن أبي الأصبع إذ يقول فيه : (هو الكلمة التي إذا طرحت مِن الكلام نقص حسنُ معناه أو مبالغته ، مع أنّ لفظه يوهم بأنه تام[17]) ، هذا مِن حيث درجة أهميته في الكلام .

أما أنواعه فاثنان : تتميم في المعنى ، وآخر في اللفظ ، ويختص الأخير بالشعر ، إذ يراد مِن تتميم اللفظ إقامةُ الوزن ، فيؤتى بلفظٍ فضلةٍ لإتمام الوزن وإقامة البيت ، كقول أبي الطيب :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه ـ يا جنتي ـ لرأيت فيه جهنما[18]

[16]– أبو هلال العسكري ت395هـ ، (1998) الصناعتين ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ص 389 .
[17] – ابن أبي الأصبع ، تحرير التحبير ، ص 127 .
[18] – أبو الطيب المتنبي (1983) ديوان أبي الطيب المتنبي ، بيروت ، دار بيروت ، ص15 .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

فمجيء الشاعر بـ " يا جنتي " إنما كان لإقامة وزن البيت ، لا لحاجة في المعنى ، إذ لو طُرح التتميم هنا لاستقلّ معنى البيت ، ومع هذا فإنّ المتنبي لم يرضَ أنْ تكون هذه الزيـــادة لسدّ ثغرة الوزن فحسب ، وإنما اختـــار قولَـــه ببراعة ، كي يحقق المطابقة البلاغية بين تتميمه (يا جنتي) وبين قافية البيت (جهنما) ، ليزيد في جمالية البيت وحسنه .

فإسقاط التتميم اللفظيّ في البيت هنـــا لم ينقص المعنى غير أنّ الحاجة إليه إنما جـاءت لغرض الوزن ، وأما تتميم المعنى فيكون لعـدّة أنواع مِن إيضـــاح المقصود وتتميم المراد ، كغرض المبالغـــة مثـــلاً ، في قـــول الله ﷻ :ٱ يَسْتخفونَ مِنَ الناسِ ولا يستخفونَ مِن اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إذْ يُبَيّتونَ مَا لا يَرْضَى مِن القَوْلِ وَكانَ اللهُ بِمَا يَعملونَ مُحِيطاً ً [النساء ، 108] فسياق المبالغة في تفظيع ما فعله المنافقون مِن تخفيهم مِن الناس والاهتمام بهم ، وعدم المبالاة باطلاع الله ﷻ عليهم ، استدعى هذا التتميم المحكَم في قوله : "معهم" ، إذ إنّ حياء الإنسان يتجلّى ويزيد بوجود المصاحب له أكثر منه عندما يكون وحده ، ومع ذلك لم تدفعهم هذه الفطرة إلى الاستحياء مِن الله ﷻ ، وهو الحاضر معهم في كلّ أحوالهم ، وكان تخفّيهم مِن الناس الذين يلازمونهم أحياناً ويغيبون عنهم أحياناً ، فاستدعت دلالة المبالغة هذا التتميم القرآني ، وإلى مثل هذا أشار الإمـــام السيوطيّ رحمه الله في تفسيره للآيـة وذكـره للتتميـم الـوارد فيها[19].

ومِن التتميم الذي أفاد المبالغة معنىً وأقام البيت وزناً قول زهير :

إنْ تلقَ يوماً ـ على علاته ـ هرَماً تلقَ السماحة منه والندى خلقاً[20]

فـ" على علاته " إتمامٌ أقام الوزن وأتمّه ، وأفاد المبالغة في المدح ، ولو أسقطه الشاعر لكان المعنى ، غير أنه منقوصُ الحظ مِن الجودة ، مسلوبُ النصيب مِن صحة المعنى الذي هدف إليه الشاعر .
ومِن تتميم المعنى ما يكون لغرض الاحتياط كقول الشاعر :

[19] – جلال الدين السيوطي ت911هـ ، (1994) قطف الأزهار في كشف الأزهار ، قطر ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، 748/2 .
[20] – زهير بن أبي سلمى (1988) ديوان زهير بن أبي سلمى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ص 77 .

أناس إنْ لم يُقبل الحقُّ منهـم ويعطوه عاذوا بالسيوف القواضب[21]

فتقويم الوزن بلفظة " يعطوه " أو بما يماثلها وزناً لا بدّ منه ، وإثراء المعنى بها لا غنى لكمال مراد الشاعر عنه ، إذن حذف تتميم المعنى هو درجة مِن درجات نقص المعنى ، وحذف تتميم اللفظ هو كسرٌ للوزن ، ومِن هنا تتضح الحاجة إليه بقسميه ، فبعد أنْ يورد قدامة بن جعفر هذا البيت يقــول : " فإنما تمـّت جودة المعـنى بقوله :

(يعطوه) ، وإلا كان المعنى منقوص الصحة[22]" .

وزعم البعض : أنه حتى يصدقَ على التتميم هذا الاسم لا بدّ أنْ يأتي في حشو الكلام ، فإذا ما كانت هذه الزيادة في فواصل الكلام أو مقاطعه سُمّي إيغالاً ، بمعنى أنْ يتضمن مقطع الكلام معنى يزيد الكلامَ وضوحاً وشرحاً وحسناً ، فالإتيان به فضلة عن تمام الكلام ، حيث يؤتى به لا لحاجة المعنى إليه ، وإنما لزيادة إفهامٍ وشرحٍ وإيضاح ، ومِن هذا قول الأعشى :

كناطحِ صخرةً يومـاً ليوهنهــا فلم يضُرْها ، وأوهى قرنه الوعلُ

فتمام المعنى قوله " فلم يضرها " ، وما بعدها إيغالٌ في الشرح ، وإعادة للمحتوى السابق ، وتصويرٌ لحالة عجز الناطح عن الإضرار بالصخرة ، ولا يختلف عن هذا قول امرئ القيس :

كأنّ عيون الوحش حول خبائنا وأرحلِنـا الجزعُ الذي لم يُثقّب

فمقطع البيت " لم يثقب " ما زاد ما أراد إلا توكيدَ التشبيه ، فعيون الوحش ليست مثقبة .

ولا بدّ أنْ يُقرأ الرابط بين التتميم والإيغال بصورة أدقّ ، فأنْ يطلق على زيادة المقاطع اسمُ إيغال ، وعلى ما كان في حشو الكلام تتميماً ، فلا بأس ، أما أن يُحصَر الفارق بينهما بمكان الزيادة فلا ، فليس

[21] – ابن أبي الأصبع ، تحرير التحبير 128 .
[22] – قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ص49 .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

مِن الإنصاف اعتبار ما تركُه نقصٌ في المعنى و وهنٌ في العبارة ، أعني : "التتميم" ، كما ذِكْرُه تحسينٌ للعبارة وفضلة عن تمام المعنى أعني : "الإيغال" وجعلُ ذات الزيادة إيغالاً في المقاطع وتتميماً في الحشو، فـ" أوهى قرنه الوعل " ليست في حاجة البيت إليها بمكانة قوله: " على علّاته " التي لا يُشفَى صدرُ زهير أو القارئ إلا بذكرها ، ليُعلم أنّ الممدوح في كلّ حالاته لا تجد منه إلا مكارمَ الأخلاق ، وهذا الكلام على اعتبار التتميم شبه حاجة يقتضيها الكلام ، أما على اعتبار صاحب كتاب (الطراز) فلا يعدو التتميم كونه ضرباً مِن أضرب المبالغة كما أنّ الإيغال ضربٌ مِن المبالغة ، مع أنه يفرِد لكل مِن التتميم والمبالغة والإيغال باباً مستقلاً ، ولكن العبارة الأولى مِن تعريفه للتتميم تُلمح إلى جعل الحاجة إليه كالحاجة إلى الإيغال الذي هو زيادة محضة لا تكمل المعنى وإنما توضحه وتحسّنه فحسب ، فالتتميم عنده " تقييد الكلام بفضلة لقصد المبالغة ، أو للصيانة عن احتمال الخطأ ، أو لتقويم الوزن[23]" فلا ضرورة لذكر التتميم تُذكر عنده تزيد عن قصد المبالغة في أول جملة مِن تعريفه له ، والجملة الثانية تتضمن معنى الاحتراس عن الوقوع بالخطأ ، وأما تقويم الوزن الذي يذكره في الجملة الثالثة مِن التعريف، فهو مِن دواعي التتميم اللازمة التي لم يختلف عليها أحد ، وهناك تعارضٌ واضحٌ بين درجة الحاجة لتقويم الوزن وبين قولـه " تقييد الكلام بفضلة لقصد المبالغة " إلا إنْ قصد بالفضلة تلك الألفاظ التي تخدم المعنى شرحـاً وبيـاناً (والله أعلم) .

ومِن جميل الإيغال ما ذكر سابقاً مِن تشبيه زهيرٍ تزيينَ الهـوادج التي تنزل بها النساء بحبّ الفنا الذي لم ينكسر ، وكذلك قولُ ذي الرمة :

قِف العيسَ في أطلال ميّة واسألِ رسوماً كأخلاق الرداء المسلسلِ
أظُنّ الذي يجدي عليك سؤالُهـا دموعاً كتبديد الجُمان المفصـلِ

حيث تمّم الشاعر كلامه في البيتين قبل القافية ، ثم احتاج فيهما إلى القافية التي تزيّن الكلام فزاد شيئاً ، والإيغال إنما يكون في القوافي لا يتعداها ، إذ إنه زيادة لا لنقص المعنى وإنما لتحسينه ، فكان لزاماً أنْ يكون بعد تمام الكلام وفي القوافي .

[23] – يحيى بن حمزة بن علي الحسيني العلوي الطالبي ت745هـ (2004) ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، 57/3 .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

ـ التكميل :

غاية وأصحّ ما قيل فيه هو " أنْ يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى تامّ مِن مدح أو ذمّ أو وصف أو غيره مِن الأغراض الشعرية وفنونها ، ثم يرى الاقتصار على الوصف بذلك المعنى فقط غير كامل فيأتي بمعنى آخر يزيده تكميلاً ، كمَن أراد مدح إنسانٍ بالشجاعة ثم رأى الاقتصار عليها دون مدحِه بالكرم غير كامل فيكمله بذكر الكرم ، أو البأسِ دون الحلم وما أشبه ذلك مِن الأغراض "[24] ، ويجدر في تعريف ابن حجّة الحموي هذا التنبيهُ إلى أمرين : 1ـ التباسٌ قد يقع فيه القارئ ، 2ـ وتوضيحٌ لمفهوم التكميل عنده .

أما الالتباس ففي قوله : " ... فيكمله بذكر الكرم أو البأس ، دون الحلم وما أشبه ذلك مِن الأغراض ... " إذ قد يُتوهّم في هذه العبارة أنّ قوله (دون الحلم...الخ) ، جاء بمعنى (غير) وعلى هذا فلا معنى يُستفاد مِن العبارة ، ولفهم المعنى المراد لا بدّ مِن عطف (البأس) على (الشجاعة) وتقدير أفعال قبل كلمة (البأس) وبعدها مماثِلة للأفعال التي ذُكرت سابقاً ، ليصير المعنى : كمن أراد مدح إنسانٍ بالشجاعة .... أو أراد مدحَه بالبأس ثم رأى الاقتصار عليها دون مدحِه بالحلم ..الخ .

وأما التوضيح لمراده مِن التكميل ، فابن حجّة الحموي ممّن جعل الاحتراس والتكميل لفظين لمعنى واحد ، موافقـاً ابنَ رشيق في هذا ، وهذا يظهر مِن عدم ذكر الاحتراس كفنّ مستقلّ مِن فنون البلاغة ، وكذلك مِن خلال سَوق شواهد الاحتراس على اعتبارها تكميلاً ، كقوله تعالى :"ً ... فَسَوْفَ يأتِ اللهُ بقومٍ يُحبُّهم ويُحبّونهُ أذلّةٍ على المؤمنينَ أعِزّةٍ على الكافرينَ ..." [المائدة ، ٥٤] ، وقد تقدّم إيضاح الاحتراس فيه ببابه ، وكذلك الأمر في باقي الشواهد ، كقوله في قول كعب بن سعيد الغنوي :

حليمٌ إذا ما الحلم زيّن أهلَه مع الحلم في عين العدوّ مهيب

[24] – ابن حجة الحموي ، الشيخ تقي الدين أبو بكر علي ت837هـ ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، بيروت ، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر ، ص170 .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

قال : " قوله إذا ما الحلم زيّن أهله احتراس لولاه لكان المعنى في المدح مدخولاً ، إذ بعض التغاضي قد يكون عن عجز يوهم أنه حلم فإنّ التجاوز لا يكون حلماً محققاً إلا عن قدرة[25] " ، ومِن حيث الفرق بين التتميم والتكميل فإنه يستنكر جعلهما لمعنى واحد عند ذكره قولَ عوف السعدي :

إنّ الثمـــانين ـ وبُلّغتـــها ـ قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمان

يعتبر أنّ الذين ساقوا هذا البيت على أنه شاهد في باب التتميم قد خلطوا بينهما ، إذ إنّ هذا البيت أبلغ شواهد التكميل، لأنّ معنى البيت تامّ دون لفظ (وبلغتها) فإذا لم يكن المعنى ناقصاً فكيف يُسمى هذا تتميماً ؟ فالتكميل يرد على الأمر التامّ فيكمله ، إذ الكمال أمرٌ زائد على التمام ، ثم يستشهد بقول ابن أبي الأصبع في توضيحه لسبب هذا اللبس والغلط عند أصحاب القول الآخر ، وهو : أنهم لم يفرّقوا بين تتميم الألفاظ وتتميم المعاني ، إذ لو أنهم اعتبروه تتميماً للوزن لكان كلامهم قريباً مِن الصواب[26] ، يشير بهذا إلى تتميم اللفظ ، أي : إنّ هذه المصطلحات إنما ترجع إلى المعنى ، والتفريق بينهما ينبغي أن يعود للمعنى ، والمعنى مختلف بين التكميل والتتميم ، وبالتالي كان من الخطأ عدّ هذا البيت شاهداً على التتميم ، لأنّ المعنى لم ينقص في البيت ، إلا إن عُدّ تتميماً لفظياً ، أي : جيء به لأجل الوزن ، فعندئذٍ تكون تسميته تتميماً لا بأس بها ، وتقسيم التتميم هذا ذُكر في باب التتميم السابق .

إذاً رأيُ ابن حجة في الكمال هو زيادةٌ تكون بعد تمام المعنى ، وهذا ما جعله لا يفرّق بينه وبين الاحتراس .

ـ الاستقصاء :

إنْ كان الإيغال ضرباً مِن المبالغة والترف في التحسين ، فإنّ الاستقصاء أوسع في هذا المعنى ، حيث إنه بلوغ المتكلم أو الشاعر أقصى ما يمكن مِن وصف الشيء ، وهذا تعريف الاستقصاء الذي أطلق عليه ابن رشيق اسم "التقصّي" والذي قيّد تعريفه أيضاً بالشعر كما فعل في تعريف التتميم سابقاً ، كما اعتبر التقصّي مِن أحسن المبالغة وأغربها عند الحُذّاق ، كقول عمرو بن الأيهم التغلبي :

[25] – ابن حجة الحموي ، خزانة الأدب ، ص 170 .
[26] – المرجع السابق ، ص170 .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

ونكرم جارنا ما دام فينا ونُتبعه الكرامة حيث كانا[27]

والإخفاق ذاته وقع فيه ابن أبي الأصبع في تعريفه للاستقصاء في كتابه (تحرير التحبير) ، حيث قرنه وقيّده بنظم الشاعر ، فقال : " وهو أن يتناول الشاعر معنى ، فيستقصيه إلى أن لا يترك فيه شيئاً[28] " ، ثم استشهد بآية مِن كتاب اللهﷻ على ذلك ، ولكن ابن أبي الأصبع ـ كما يبدو لي ـ لا يريد هذا التخصيص ولا يقصده ، وإنما يقصد عمومَ الكلام ، بدليلين : 1. تناوله آية مِن الكتاب العزيز كشاهد على أحسن وأتم استقصاء 2. إسقاط هذا القيد في تعريفه للاستقصاء في كتابه الآخر (بديع القرآن) حيث يقول فيه : " هو أن يتناول المتكلم معنى ، فيستقصيه ، فيأتي بجميع عوارضه ولوازمه بعد أن يستقصي جميع أوصافه الذاتية ، بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده مقالاً[29] " ، ولعلّ في هذا إشارة إلى أن تأليفه لتحرير التحبير كان سابقاً لتأليفه بديع القرآن ، إذ كان التعريف الثاني بمثابة تدارك وتصويب للأول .

ولقد غدا لهذا الأسلوب مكانٌ في كتب النقد والتحليلات الأدبية ، كما في كتـاب (فن المقال الصحفي في أدب طه حسين) الذي يعنى بتحليل أدب طه حسين ، حيث أُفرِد لأسلوب الاستقصاء عنوانٌ عريضٌ يحلّل على أساسـه أسلوبُ طه حسين مِن حيث الاستقصاء في أدبه[30] .

ولعلّ أحداً مِن المتقدمين لم يشبع الكلام في الاستقصاء كما فعل ابن أبي الأصبع ، فقد مثّل له بالشعر وبالكلام العزيز ، وما توضيح الإمام السيوطي رحمه الله لأسلوب الاستقصاء في قول الله تعالى : ﴿ أيوَدُّ أحدُكُمْ أنْ تكونَ لهُ جَنّةٌ مِنْ نَخيلٍ...الآية﴾ [البقرة ، 266] في كتابه (قطف الأزهار في كشف الأسرار) إلا اقتباساً لكلام ابن أبي الأصبع فيها وترجيعاً له ، إضافة إلى اللمسات السيوطية المعتادة ، وحيثما يُذكر فنُّ الاستقصاء تُذكر معه هذه الآية ، لذلك قال ابن أبي الأصبع فيها : " وهذا أحسن استقصاء وقع في كلام وأتمه وأكمله[31] " ، كما قال في موضع آخر : " وقد جاء في الكتاب العزيز من

[27] – ابن رشيق ، العمدة ، 55/2 .
[28] – ، ابن أبي الأصبع ، تحرير التحبير ص540 .
[29] – ابن أبي الأصبع ، بديع القرآن ، ص247 .
[30] – عبد العزيز شرف ، فن المقال الصحفي في أدب طه حسين ، مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص119 .
[31] – ابن أبي الأصبع ، بديع القرآن ، ص250 .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

ذلك ما لا يلحق سبقاً[32] " ثم يذكر الآية الكريمة ، ثم يبيّن قدر هذا الاستقصاء بقوله : "وهذا أحسن استقصاء وأتمّه ، بحيث لم يبق في المعنى المقصود موضع استدراك[33] " ، وإنّ الفرق بين ما ذكره ابن أبي الأصبع وما ذكره السيوطي رحمهما الله في تفصيل الاستقصاء في الآية واضحٌ للمطّلع ، فقد كان كلام السيوطيّ صدى لكلام ابن أبي الأصبع في هذه الآية ، كما اقتصر السيوطيُّ على هذا الفن في الآية ، أما ابن أبي الأصبع فقد بيّن في كتابَيْه الفرقَ بين الاستقصاء والتتميم والتكميل ، وذلك بذكره وجودَ التتميم والتكميل في صدر الآية ، حيث يعتبر أنّ تضمين الجنة بالنخيل والأعناب كان كافياً ، و وصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار تتميم لوصفها بكونها مِن نخيل وأعناب ، فيعتبر الوصفين بمثابة التتميمين ، وأما التكميل فهو ما جاء بعد هذين الوصفين وهو قوله تعالى : " له فيها مِن كل الثمرات "[34] فيعتبر أنه تكميلٌ لوصفها بعد تتميمين ، حيث أتى بكل ما يكون مِن الجنّات ليشتدَّ الأسف على إفسادها ، وبعد التتميم والتكميل يبدأ الاستقصاء ، يقول في ذلك : " ثم قال في وصف صاحب الجنة (وأصابه الكبر) ، ثم استقصى المعنى في ذلك بما يوجب تعظيم المصاب بقوله بعد وصفه بالكبر (وله ذرية) ، ولم يقف عند هذا حتى وصف الذرية بالضعف ثم ذكر استئصالَ تلك الجنة التي ليس لهذا الذي أصابه الكبر وليس لذريته الضعفاء غيرُها بالهلاكِ في أسرع وقتٍ حيث قال : (فأصابها إعصار) ، ولم يقتصر على ذكر الإعصار للعلم بأنه لا تحصل به سرعة الهلاك فقال (فيه نار) ، ثم لم يقف عند ذلك حتى أخبر سبحانه باحتراقها لاحتمال أنْ تكون النار ضعيفة لا تفي باحتراقها لما فيها مِن الأنهار و رطوبةِ الأشجار فاحترس عن هذا الاحتمال بقوله (فاحترقت) ، وهذا أحسن استقصاء وقع في كلام وأتمه وأكمله "[35] ، وينهي رحمه الله بحثَ الاستقصاء في كتابَيْه بذكر الفرق بين المشتبهات الثلاثة ، نظراً لتوافرها جميعها في الآية ، فيذكر أنّ التتميم هو وروده على المعنى الناقص ليتمّ ، والتكميل على المعنى التامّ فتكمل أوصافه ، والاستقصاء على المعنى التام الكامل فتستقصى لوازمه وعوارضه وأوصافه وأسبابه ، حتى يستوعب جميع ما تقع الخواطر عليه فلا يبقى لأخذه مساغ ، ولا لاستحقاقه مجال " ، وكما فصّل الاستقصاء في الآية فإنه لم يسقط ذلك التفصيل فيما ورد في الشعر مِن ذلك ، بل إنه في كتابَيْه ابتدأ الأمر ببيت للبحتري يصف فيه الإبل ، غير أنه ما ذكره إلا ليلفت نظر القارئ إلى الفارق بين النظم البشريّ والنظم الإلهيّ لنفس الأسلوب ، لذلك يقول بعد الانتهاء مِن بيان الاستقصاء في بيت البحتريّ

[32] – ابن أبي الأصبع ، تحرير التحبير ، ص542 .
[33] . المرجع السابق ، ص543 .
[34] . ابن أبي الأصبع ، بديع القرآن ، ص249 .
[35] . المرجع السابق ، ص250 .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

وقبل البدء بتناول الآية : " وإذا نظرت بين بيت البحتري وبين قوله تعالى : (أيود أحدكم ... الآية) علمت مقدار ما في نظم القرآن من البلاغة ، وتبينت أن الإعجاز فيه بالفصاحة " .

أما قول البحتري :

كالقِسيّ المعطَّفات بل الأسـ ـهم مبرية بل الأوتار[36]

ولقد جعل الاستقصاءَ في هذا البيت يتمثل في جمعه لأنواع شتى مِن أساليب البلاغة بحيث تمّ تناول المراد مِن كلّ الزوايا والجوانب ، فمراد الشاعر فيه وصف الإبل التي براها وأضناها السير .

ـ مختصر القول في التفريق بين المتشابهات المذكورة بعيداً عن إدماج معاني بعضها ببعض عند البعض :

1. الاحتراس : هو زيادةٌ في الكلام ، ومجيئه في الكلام ليس ضرورةً ولكنْ شِبهُها ، وذلك لأنّه يكون دفعاً لتوهـّمٍ أو التباسٍ أو تساؤلٍ في نفس السامع أو القارئ للكلام قد يؤثّر على فهم قصد المتكلم أو الكاتب .

2. التتميم : هو زيادةٌ يحتاجها الكلامُ أكثرَ مِن حاجته للاحتراس ، سواء في شقـّه اللفظي ، وذلك أنّ البيت الشعري أحوج إلى تقويم وزنه مِن الزيادة التي تدفع التوهم الذي قد يؤثّر على فهم العامّة للكلام دون الخاصة ، أم في الشقّ المعنوي ، إذ يكون إتماماً لشِبه نقصٍ في الكلام ، ولا يمكن القول بأنه إتمام لنقصٍ في الكلام ، وإلا لكان أصلاً في الكلام، ولما صحّ اعتباره مِن الزيادات التي تنطوي تحت فنّ الإطناب .

ولهذا أنكر ابن أبي الأصبع على ابن رشيق عدّه الاحتراسَ غرضاً مِن أغراض التتميم ، ولقد تبعَ ابنُ حجّة ابنَ رشيق في هذا[37] .

---

[36] . البيت من قصيدة يمدح فيها أبا جعفر بن محمد ، ويستوهبه غلاماً ، ومطلعها :

أبكاء في الدار بعد الدار وسلوا بزينب عن نوار

[37] – أي : تبعه في عدّ الاحتراس غرضاً من أغراض التتميم .

3. الإيغال : هو أقلّ ضرورة مِن سابقَيه ، لأنّ الكلام لا يحتاجه لإتمام معنىً أو دفع توهّم ، وإنما غاية ما يقال فيه : أنه فضلةٌ يأتي لزيادة توضيحٍ وحُسنِ بيانٍ ، لذلك يأتي عادةً في مقاطع الكلام ونهاياته ، وهو أقرب إلى التكميل مِن حيث مجيئُه لزيادة الإيضاح والبيان ، وإلى الاحتراس مِن حيث مجيئُه زائداً بعد كلامٍ تامّ ، وهذا ما نصّ عليه ابن أبي الأصبع ، وكذلك يكون شبهه بالاحتراس مِن حيث انتظارُ القارئ أو السامع لمزيدٍ مِن الكلام يثلج صدرَه ، ويُشبِع ذهنَه بالفكرة . .

4. التكميل : هو أقرب إلى الإيغـال مِن جهـة أنه لا يكون دفعـاً لتوهّم أو إتمامـاً لنقصٍ مُنتظَرٍ في المـعنى أو
الوزن ، وإنما يأتي لغاية التوضيحِ والتذوّق في البيان ، غيرَ أنّ الإيغالَ يأتي في القوافي دليلاً على أنه فضلةٌ تؤنّق الكلامَ وتجمّله ، أما التكميل فلا يختصّ بالقوافي ، وعليه فإنّ الكلام أحوجَ ـ مِن حيث الإيضاح والبيان ـ إلى التكميل مِنه إلى الإيغال .

وأما قُربُه مِن الاحتراس فلذات السبب الذي قرّبه مِن الإيغال ، وهذا ما جعل ابنَ حجّة الحموي ومِن قبله الخطيبَ القزوينيّ يعدّونهما شيئاً واحداً .

5. الاستقصاء : هو غايةُ البيان ، واستيفاءُ الأخذ بجوانب الكلام ، والإحاطة بجزئياته ومعانيها .

ـ خلاصة الاختلافات في التفريق أو دمج أساليب الإطناب المتشابهة ببعضها :

1ـ التتميم والاحتراس : شيء واحد عند ابن رشيق وابن حجة الحموي .
2ـ الاحتراس والتكميل : شيء واحد عند الخطيب القزويني وابن حجة الحموي .
3ـ التكميل والتتميم : ينكر ابن حجّة وابن أبي الأصبع على مَن جعلهما شيئاً واحداً .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

النتائج والتوصيات :

في نهاية هذه الدراسة يمكن تلخيص النتائج والتوصيات بالآتي :

1ـ إنْ كان إيجازُ الكلام العربي قد استأثر بجمال اللغة وإعجازها ، فإن نقيضَه ـ الإطناب ـ سيكون أكثر إعجازاً وبهاءً في النصّ إنْ اقتضاه الكلام ، وقد ظهر ذلك في شواهد البحث .

2ـ إنّ الفكرة الخفيّة والمحور المركزيّ الذي دار حوله البحث هو التحرّر مِن النقل الجامد للمسائل والكتابات القديمة ، والذي يحول دون التعمّق في قراءة النصّ وحسنِ إدراكها ، وذلك بداعي احترام الأوّلين مِن العلماء رحمهم الله ، فهو لا ريبَ أمرٌ مطلوبٌ ، بل لا بديلَ عنه ، ولا بدّ مِن الاعتراف لهم بالسبق والإبداع والدعاء لهم على ما قدموه ، غير أنّ في هذه الدراسة ما يسوق الذهن إلى القناعة بأنهم لا شكّ وإن كانوا فريديْ عصرِهم وحملةَ رايةِ العلوم إلا أنهم ـ رحمهم الله وجزاهم عن الأمة خيراً ـ مجتهدون يطرأ عليهم الالتباسُ ومجانبةُ الصوابِ أحياناً كطبيعة البشر .

2ـ كان المبتغى مِن هذه الدراسة إخراج هذه المتشابهات التي تشكل عقدةً عند دارسي ومُدرّسي علم البلاغة ، مِن عتمة الالتباس إلى وضح الإدراك ، لذلك يوصى بمثل هذا العمل في كلّ ما توارى عن الفهم ممّا يتشابه مِن العلوم عامّة .

الخاتمة :

لن تزال الكلمة العربيّة مصدر إعجاز وإعجاب ، فالكلمة أو الجملة التي يُرى في حذفها في موضع ما غايةَ البلاغة هي ذاتها التي إذا فُقدتْ في نصٍّ ما فُقدت معها تلك الملاحة والظرافة التي يبتغيها القارئ ، وليس العجب في كونِها كلمةً أصلاً في الجملة ، كقولي مثلاً : (إني على حبّ زيدٍ لباقٍ) وإنما العجب عندما تُساق شبه الجملة هذه (على حبّه) سياقاً زائداً عن أصل الكلام وضرورته ، ومع ذلك يرى القارئ أنّه لا بدّ من ذِكرها حتى يكتمل فهمُ المعنى في ذهنه ، ويعلَمَ أنّ الأمرَ ليس إنفاقاً فحسب ، وإنما إيثار وتضحية ، كما تقدّم في قول الله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) وكذلك لنْ أعجبَ عندما أقول : (لم يكن المطرُ مفسداً للأرض) وإنما ستطغى عليّ هذه الغرابة وهذا الذهول عندما أقرأ قول طرفة المتقدم :

فسقى ديارَك ـ غيرَ مفسدها ـ صوبُ الربيع و ديمةٌ تهمي

وسأقف حائراً أمامَ هذه العبارة التي اعتُبرت زيادةً في كلامه ، إلا أنّ ذائقي العربية لا تقبل أن يقال بيتُ الشعر دونها ، حتى لا ينسلّ وهم الإتلاف والإفساد إلى ذهني حولَ هذه السقيا وهذا المطر الذي نزل .

ولأجل ما ذُكِر كان لا بدّ أنْ تخدَم هذه الكلمة العربية مِن قِبَل أبنائها ، وطرق خدمتها شتى ، بل لا حصرَ لها ، فكلّ عملٍ يخرج هذه الكلمةَ مِن تيهِ الوهم إلى هدى الفهم هو خدمةٌ واجبةٌ يلزم تقديمها مِن قِبل كلّ قادرٍ ومتمكّن ، كما لا غنىً عن نشر هذه الخدمات العلمية ، سواء بإصدارها ككتب تُوزّع أو بحوث تُنشر أو مقالاتٍ تكون في متناول أيدي العامّة والخاصّة مِن القارئين .

المصادر :

1. أبو هلال العسكري ت395هـ ، (1998) الصناعتين ، بيروت ، المكتبة العصرية .
2. أبو الطيب المتنبي ت354هـ (1983) ديوان أبي الطيب المتنبي ، بيروت ، دار بيروت .
3. ابن أبي الأصبع العدواني البغدادي ثم المصري ت654هـ ، بديع القرآن ، مصر ، نهضة مصر للطباعة والنشر .
4. ابن أبي الأصبع العدواني البغدادي ثم المصري ت654هـ ، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، الجمهورية العربية المتحدة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي .
5. ابن حجة الحموي ، الشيخ تقي الدين أبو بكر علي ت837هـ ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، بيروت ، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر
6. ابن رشيق القيرواني الأزدي ت463هـ ، (1981) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، بيروت ، دار الجيل .
7. ابن منقذ الكناني الكلبي الشيزري ت 584هـ ، البديع في نقد الشعر ، الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي .
8. زهير بن أبي سلمى (1988) ديوان زهير بن أبي سلمى ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
9. جلال الدين السيوطي ت911هـ ، (1994) قطف الأزهار في كشف الأزهار ، قطر ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية .

10. جلال الدين القزويني الشافعي ت739هـ ، (1971) ، الإيضاح في علوم البلاغة ، بيروت ، دار الجيل .

11. عبد العزيز شرف ، فن المقال الصحفي في أدب طه حسين ، مصر ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب .

12. عبد القاهر الجرجاني ت417هـ (1992) دلائل الإعجاز في علم المعاني ، القاهرة ، مطبعة مدني.

13. قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي ت337هـ ، (1884) نقد الشعر ، القسطنطينية ، مطبعة الجوائب .

14. يحيى بن حمزة بن علي الحسيني العلوي الطالبي (2004) ، الطراز لأسرار البلاغة ، بيروت ، المكتبة العصرية .

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
العدد الثاني عشر
تاريخ الإصدار: 2 – 10 – 2019
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

" A reading about the similarities of circumlocution "

Author Name : Dr . Muhamed Mustafa Samaiel

GENERAL AUTHORITY OF ISLAMIC AFFAIRS & ENDOWMENTS – ABUDHABI - U-A-E

Abstract :

This research has exclusively included the five similar styles of circumlocution that the researcher might suspect the right meaning.

I would like to notice that some of the rhetoric scholars had declared these differences, some had imcluded its indications with other type of rhetoric, some had quoted specific evidences for a specific type of rhetoric to be an evidence for other type of rhetoric with a lot more of differences based on meaning approach and identical indications to these styles and evidences.

This research is effectively designed to explain in details the fields of each style and the needs of referring to them as they are extra explanatory methods with privilege of referent reasons not limited to ,explain ambiguous statements , refute the suspicions in the speech with a lot more of what the speech needs for perfection and excellency .

Keywords : similarities of circumlocution , ihtiraas : excess words in the speech to refute illusion , tatmeem : extra words to complete the meaning of the sentences , eghal excess worda as a speech decor, takmeel : an addition to a complete speech, esteksaa : to cover the required meaning from all sides .